ملك الموت وقبض الأرواح

سؤال: كيف يستطيع ملك الموت وحده القيام بقبض أرواح العديد من الذين يموتون في لحظة واحدة؟

الجواب: نرى في هذا السؤال كيف أن المقاييس البشرية تخدع الإنسان. فكما أن تشبيه الملائكة بالإنسان خطأ، كذلك من الخطأ البحث عن آثار الروح ووظائفها في الجسد. لذا فلا يمكن الإجابة على هذا السؤال قبل القيام بإيضاح الخطأ المصطلحي، أي يجب أولًا معرفة نقاط الانحراف في السؤال ثم القيام بالإجابة.

بما أن الملائكة يختلف عالمها عن عالمنا، فإن طبيعتها وماهيتها ووظائفها مختلفة تمامًا عن عالمنا. لذا فإن من الخطأ إعطاء أي حكم دون النظر إلى عالمها الخاص ودون التفكير بماهيتها ووظائفها. لذا يجب معرفتها من هذا الجانب أولًا.

كلمة الملائكة مشتقة من كلمة ''المَلْك'' بمعنى القوة، أو من ''المَلَك'' بمعنى الرسول. فمن حيث الاشتقاق الأول يكون المعنى: القويّ جدًّا. ومن حيث الاشتقاق الثاني يكون المعنى: الرسول المبلّغ أوامر الله تعالى. هذه الأوصاف الممتازة موجودة في عموم الملائكة التي خلقها الله تعالى وهي ضرورية لدى الملائكة الموكَّلين بتبليغ الوحي الإلهي خاصةً. وهذه المخلوقات السامية، -بدءًا من الملائكة المكلفين بمراقبة الحياة والممات، وانتهاء بحَمَلة العرش المبهورين بالحضرة الإلهية- مكلفةٌ وموكّلة بتنفيذ الأوامر الإلهية ومشاهدتها.

فـكل الأعمـال بدءًا من العالم الكبير (الكـون) وانتهاءً بالعالم الصغير (الذرّة)، وكل التغييرات والتركيبات والتحوّلات تقـع بإشراف ومراقبة هذه الكائنـات المتميزة السـامية. كما تقوم هذه الكائنـات القوية الأمينة بتبليـغ التشـريعات والأوامـر الإلهية التي مصدرها صفة الـكلام. فإن أخذنا بنظر الاعتبـار قيامهـا بأعمـال كونية مدهشـة اعتبارًا من الإشـراف على قوانين العامـة للجذب والدفـع وانتهاء بالحركة المنتظمة للإلكترونات حول نواة الـذرات.. إذا أخذنا هذه الأعمال المدهشـة الدقيقة الصعبة بعين الاعتبار علمنا مدى القوة والأمانة التي تتصف بها.

الوظائـف والمهمـات التي تقـوم بها الملائكـة كثيرة ومتعـددة جدًّا، فـلا يمكـن تصور وقـوع حادثـة خـارج مهامهـم... لا تنزل قطـرة مطر، ولا يبـرق برق من دونها، أي إن جميـع القوانين الكونية والفطرية تجري بواسـطتهم، أي بواسـطة هذه القـوى المدركة الواعية، كلٌّ حسَـب قابليته واسـتعداداته التـي وهبهـا صاحب الملـك والقوة ﷻ. كما يرد بواسـطتها الإلهام والوحي الإلهي المرسـل لتوجيهِ وتنظيم وتصحيح سلوك الإنسان الذي هو أشرف مخلوقات الله تعالى.

إذًا فنظـرا إلـى القـدرة والقـوة الهائلة المعطـاة لها لمباشـرة وظيفتها بوصفها وكيلة على شـؤون الخلـق، والقيام بمهام عديدة بدءًا من الذرات إلـى السـدم، ونظرًا لكونهـا جهزت بقوة وقـدرة ملكوتيـة لأداء وظائفها، فإن تشـبيه الملائكة بالإنسـان وتوهم أن القيود الضرورية الموجودة أمام البشر تقيدهم أيضًا إنما هو جهل وانحراف في التصور وفي التفكير.

أجـل، لـو كانـت الملائكـة تحمل جسـدًا ماديًّا مثل جسـد الإنسـان المعرض للتحلل، ولو كان الزمن يتحكم فيها ويجري حكمه عليها مثلما يجريه على سـائر الأحياء، لكنّا محقين في اتخاذ مقياس بشـري تجاهها. ولكن هناك بونًا شاسعًا يتعذر بسببه القياس بينهما لأنهما عالمان مختلفان.

ثم إن الملائكة تختلف عن الإنسان من ناحية الخَلق. وهذا الفرق ناشئ عن المساحة الواسعة لمهماتها ووظائفها. فالطبيعة النورية في خلقها تجعلها أكثر نفوذًا وسيّالِيّةً. لذا فهي تملك قابلية الانعكاس في لحظة واحدة على أرواح عديدة، وقابلية المشاهدة من قبل أنظار عديدة في اللحظة نفسها، ويملك الملك الواحد قابلية التجلي بصور مختلفة. وفي حديث ترويه أمنا عائشة ﵂ عن الرسول ﷺ قال: "**خُلِقَت الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ**"(٧٦)، لذا فهي تملك خصائص النور.

كل جسم من الأجسام اللطيفة -مثل الشمس- يمكن أن يظهر أي واحد منه في عدة أماكن بانعكاسه في كل جسم شفاف، ويستطيع الدخول في بؤبؤ كل عين. والملائكة التي تحمل صفات النور وخصائصه تستطيع التعامل في اللحظة نفسها مع آلاف الأرواح.

علمًا بأن الملائكة التي تملك ماهيةً خفيفةً ولطيفةً تختلف اختلافًا كبيرًا عن الأشياء المادية والكثيفة مثل الشمس، فهي تملك قابلية التشكل في أشكال وصور مختلفة، كما تستطيع التمثل في الوقت نفسه في أشكال مختلفة. والتمثل معروف عند المتدينين منذ القديم ولكنه أصبح الآن موضوعًا شائعًا ومعروفًا لدى محافل الطبقة الأرستقراطية إلى درجة كبيرة بحيث أصبحت شيئًا قطعيًا كقطعية النتائج المأخوذة من التجارب.

ولا يمر يوم إلا وتنشر فيه الجرائد والمجلات خبرًا عن ظاهرة من هذه الظواهر الروحية الغريبة فيما يدعى في علم تحضير الأرواح بـ"الجسم السيال" أو "مثيل الإنسان"(٧٧). فترد الأخبار مثلًا عن مشاهدة إنسان في مكان بعيد عن مكان وجوده، وإظهار هذا الجسم المثيل قدرات

(٧٦) مسلم: الزهد والرقائق، ٦٠؛ مسند الإمام أحمد: ١٥٣/٦.

(٧٧) مثيل الإنسان: لوحظ وقوع حالات نادرة يظهر فيها الإنسان في مكانين مختلفين في الوقت نفسه. وتدعى صورة الإنسان الثاني الظاهر في ذلك المكان البعيد أو المختلف عن مكان الإنسان الحقيقي بـ"مثيل الإنسان". (المترجم)

عجيبة وقابليات فائقة. ومهما كان أصل المسألة فإن للموجودات اللطيفة كالأرواح قابليةً أكثر سياليةً وقدرات أكبر من الأجسام المادية وحريةَ حركةٍ وتنقُّلٍ أوسع من الإنسان العادي. وهذه السيالية والشفافية التي تتجاوز المادة تشير إلى أن نشاط وفعالية الجسم المثيل أكبر من الإنسان العادي، كما أن الملائكة تملك قابلية أكبر من قابلية الروح في هذا المجال. وهذا يشير إلى كونها فوق القوانين الطبيعية السارية في عالمنا.

إن تمثُّل الملائكة والأرواح كان معروفًا منذ القديم. وقام كثير من أرباب القلوب وعلى رأسهم الأنبياء بنقل مشاهداتهم في هذا الموضوع، واستشهدوا في هذا أيضًا بمشاهدة كثير من عوام الناس. كان جبريل عليه السلام يظهر في صور مختلفة، وذلك حسب المناسبة التي يظهر فيها. فإن كانت المناسبة التي يظهر فيها هي مهمة الرسول وتبليغ الوحي ظهر بالمظهر المناسب لهذه المهمة، وإن ظهر في أثناء الحرب ظهر في صورة المحارب. وهذه أمثلة على التمثل، والتمثل وارد بالنسبة لعموم الملائكة وخصوصًا جبريل عليه السلام الذي كان يتمثل أحيانًا في صورة الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه وتمثل ملَك آخر -لا نعرف اسمه- في معركة أُحد في صورة الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه فقاتل دفاعًا عن الرسول ﷺ في أصعب مراحل القتال حتى المساء حيث جاء في الرواية بأن رسول الله ﷺ قال: "**أَقْدِمْ مُصْعَبُ**"، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَمْ يُقْتَلْ مُصْعَبٌ؟ قَالَ ﷺ: "**بَلَى، وَلَكِنْ مَلَكٌ قَامَ مَكَانَهُ، وَتَسَمَّى بِاسْمِهِ**"[٧٨]. كما تمثلت ملائكة آخرون في صورة الزبير بن العوام رضي الله عنه في معركة بدر، وشدّوا من عزيمة المؤمنين.

(٧٨) مصنف ابن أبي شيبة: ٣٦٩/٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨٩/٣.

هنـاك أمثلـة لا تعـد ولا تحصى حول اتصـال بعض أربـاب القلوب وأولياء الله مـع أرباب العالم الآخر. أما الاتصال بوساطة الرؤى فهو شيء لا يمكن إنكاره، فهو شائع حتى عند عامة الناس. فيكاد كل إنسان يملك شواهد من قيام أحد الأرواح التي يعرفها بإرشاده وإنارة الطريق أمامه عند ظهوره في رؤياه. ولكن هناك بعض من يدّعي أن الرؤى ليست إلا حركة العقل الباطن، أي دفعوا هذا الموضوع إلى ظلام دامس لا يرى فيه شيء، فيا ويل الجهل!.

ونحـن إذ نحيـل الذين يرغبون في التفاصيل حـول الملائكة والتمثل والأرواح إلى المراجـع والمصادر الخاصة بهذا الموضوع. فإننا نسـتطيـع القول في النهاية: إنه كما يظهر لكل موجود مثيله في المرآة كذلك تستطيـع الملائكـة التمثل في كل شـيء يكون مرآة لها. تظهـر الملائكة لا كصورة فقط -كما هي الحال عند الأجسام المادية- بل بكل صفاتها ومزاياها.

ولا يضير الروح أو الملك في هذا الأمر أنه فرد واحد، لأنه يسـتطيـع أن ينعكـس من مكانه كشـعاع فيصل إلى أي مكان يريـده ويقوم بالوظيفة التي يريدها، ولا يعوقه في هذا أي شيء... لا البعد ولا المسافة، ولا كثرة عدد الذين يجب الوصول إليهم. فكما أن الشمس مـع كونها شمسًا واحدةً تسـتطيـع الوصـول إلى كل مـكان توجد فيه مرآة تعكـس نورها، وتجري تأثيرهـا هنـاك، كذلك تسـتطيـع الملائكة وهي مخلوقـات نورانية الظهورَ في كل مكان وتقوم بمهامها هناك، فتنفخ الحياة أو تقبض الأرواح.

ثـم إن الله تعالـى هـو الـذي يقبـض الأرواح فـي الحقيقـة. وليـس ملـك الموت سـوى مراقب وسِـتار. والله الشـهيد البصير قـادر على فعل ما لا يسـتطيـع الخيال والعقل تصوره، ويخلق في اللحظة نفسـها مليارات الكائنات أو يفني ويميت المليارات من الكائنات. فهذه هي القدرة المطلقة

التـي تَعلـم وتَرى الأشـياء كلهـا في كل لحظـة، وهذا هو العلـم المحيط الـذي لا يمكـن لعقـل تصـوره والـذي يـرى كل ذرة فـي الكـون ويقدر على إنجاز أعمال بعدد هذه الذرات في آن واحد، وقبضِ الأرواح جميعها.

وسـواء أكان الله تعالـى هـو القابـض لـلأرواح أم كان ملـك المـوت فإن من حان أجَله تُقبض روحُه.

ولتقريـب الموضوع إلى الأذهان أضرب هـذا المثل: لنتأمل في حال آلاف من أجهزة المذياع (الراديو) وأجهزة الاستقبال التي تعمل على تردد معيـن. فـإذا قمنـا بالضغط على زرّ لجهاز إرسـال يعمل علـى هذا التردد سُـمعتِ الإشـارات وأصوات أحرف المورس في جميع هذه الراديوات فـي اللحظة نفسـها. كذلك فإن المخلوقات بـكل عجزها وفقرها متوجهة نحـو صاحـب القـدرة والعـزة، وعندما يحيـن الوقت الموعود سـواء في خلقها وإيجادها أو في قبض روحها، تشـعر في روحها بإشارة معينة. فإذا كان الإنسـان العاجـز يسـتطيع بالضغـط على زر واحد التأثيـر في أجهزة متعددة بعيدة عنه آلاف الكيلومترات، فكيف يعجز صاحب القدرة المنزه عن العجز والقصور والذي ترتبط به نفوسنا وأرواحنا عن التأثير فيها مـع أن الإنسـان ليس إلَّا جهازًا حيًّا، وكيف يعجز -حاشـاه- عن نفخ الروح أو قبضه متى شاء؟

إذا وضعنا كل هذا جانبًا فهناك نظرات وآراء مختلفة حول قبض الأرواح:

١- إن الله تعالـى -كمـا ذكرنا سـابقًا- هو واهـب الأرواح وقابضها، وليس ملك الموت إلا واسطةً أو ستارًا أو رقيبًا.

٢- إن الله فـوّض قبـض الأرواح إلـى ملـك المـوت وأذِن له بذلك. وقـد ضربنـا الأمثلة على أن الفرد الواحد والملك الواحد يسـتطيع وحده إنجاز هذا العمل.

٣- هناك العديد من الملائكة يعمل تحت إدارتهم ملائكة آخرون مكلّفون بأعمال كونية عديدة وبمراقبتها. لذا فهناك ملائكة عديدون تحت إمرة ملك الموت يساعدونه في عملية قبض الأرواح. وهم أصناف عديدة، فصنف يقوم بقبض أرواح المؤمنين قبضًا سهلًا ويسيرًا ودون ألَم، وصنف يقبض أرواح المجرمين قبضًا أليمًا، وصنف يسرع بهذه الأرواح إلى ربها: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٧٩/١-٥). فهناك ملائكة كُثُر لقبض الأرواح، وكلها تعمل تحت إمرة ملك الموت، وهو يقوم -بأمرٍ من الله تعالى- بإرسال ملائكة مختلفين حسب اختلاف المحتضر إن كان شقيًّا أم سعيدًا بقبض روحه.

لذا نستطيع القول جوابًا على السؤال إن هناك انحرافًا في الفهم منذ البداية، أي هناك خطأ في تشبيه الملائكة بالإنسان، مع أن الملائكة لا تشبه الإنسان أبدًا لا من ناحية الخلق ولا من ناحية الماهية، كما أن طبيعة عملها وإجراءاتها مختلفة عنه تمامًا. فهي تتمثل -مثل روح الإنسان- في لحظة واحدة في أماكن عديدة في اللحظة نفسها، وتتعامل مع أشياء عديدة في تلك اللحظة نفسها. وفي أيامنا الحالية انتشر تحضير الأرواح والوسطاء ومحاولة تأسيس علاقة مع الكائنات غير المرئية، وانتشر التنويم المغناطيسي وعلم الروحانية (*Spiritualism*) وغيرها من الفعاليات التي تتجاوز القوانين الفيزيائية والتي تشير إلى وجود قوانين أخرى لها خاصية الشعور.

وهذه الأمور أصبحت شائعةً إلى درجة أن اكتسبت قناعةً قطعيةً. لذا فإن الملائكة التي تشبه هذه الموجودات تستطيع القيام بوظائف أضعاف هذه الموجودات، ولا سيما وظيفة مهمة قبض الأرواح، ففي هذه

العملية يكون الحي الذي حان أجله في حالة استعداد وتلاؤم وعلى نفس التـردد مــع هؤلاء الملائكة. ثـم إن المكلفين بهذه المهمة ليسـوا واحدًا، بـل كثيـرون إلى درجـة يصعب عدها. وإذا أخذنا في نظـر الاعتبار أن من الممكـن إرسـال ملك واحد لقبض روح أي محتضَـر تبين لنا عدم وجود مشكلة في الأمر.

والله أعلم.

obeikandl.com

الأماكن التي أرسل فيها الأنبياء

سؤال: **بما أن جميع الأنبياء ظهروا في شبه جزيرة العرب فكيف يكون الذين يعيشون في البلدان الأخرى مسؤولين من ناحية العقيدة والعمل؟**

الجواب: لهذا السؤال شقان:

الأول: ظهور الأنبياء في شبه جزيرة العرب فقط وعدم ظهورهم في البلدان والقارات الأخرى.

الثاني: ليس من العدل تعذيب الأمم التي لم يرسل لها الأنبياء.

والآن لنتناول كل شق على حدة، إلَّا أنه من المفيد بل من الضروري التنبيه أولًا إلى مكانة الأنبياء بين الناس.

النبوة مرتبة سامية جدًّا. فهي الغصن المُدَلَّى من الحق تعالى إلى الخلق، وهي قلب الوجود ولسانه من وراء هذا العالم الأرضي. وفيها تتجلى عملية سمو وعملية اختيار واصطفاء وعملية تكليف وإرسال. وليس النبي مجرد عبقري يملك عقلًا كبيرًا يستطيع النفوذ إلى صُلب الأحداث، فالنبي هو الإنسان الأفق الذي جميع ملكاته وقابلياته في ذروة الحركة والفعالية وفي نشاط دائمي موّاج يرسم في تموجه أفقًا جديدًا من السمو، وهذه الفعالية متوجهة إلى استقبال النسائم الإلهية في كل أمر. الجسم عنده في إمرة الروح والعقلُ وفي إمرة القلب. ونظره متوجه على الدوام إلى عالم الأسماء والصفات الإلهية، وتصل قدمه

إلى كل ما يصل إليه بصره، أي هما دائمًا معًا. أما المشاعر عند النبي فتكون نامية ومتفتحةً حتى آخر برعم فيها. وقابليته في الرؤية والسمع والإدراك تتجاوز حدودها الاعتيادية والطبيعية. ولا يمكننا أبدًا في إطار قابليتنا في التحليل والتركيب أن نصل أو حتى أن نقترب من آفاق علوم الأنبياء، تلك العلوم التي تكاد تجتاز الحدود الطبيعية.

تستطيع الإنسانية بواسطة الأنبياء اكتشاف ماهية الأشياء. ولا يمكن النفوذ الكامل إلى طبيعة الأشياء وحقائق الأحداث خارج إرشادهم وتعليمهم، ولا التدخل الصائب في الطبيعة دون إرشادهم.

كانت الوظيفة الأولى والدرس الأول لهم هو تقديم أسرار الطبيعة وقوانينها الإلهية إلى البشرية، وكان هذا الدرس خاصًّا بالمبتدئين؛ ثم قاموا بشرح الأسماء والصفات للخالق العظيم الذي يشهد له الكون والوجود كله؛ أما بالنسبة لذاته تعالى التي تعجز عن إدراكها العقول فقد وضعوا لهم ميزانًا دقيقًا ووجهوهم إلى اتخاذ الحيطة والحذر في هذا الموضوع. فذلك الخالق الذي يمسك كل هذه العوالم بيد قُدرته، بدءًا من الذرات حتى مجموعات المجرات، ويسري فيها حكمه، ويقلّبها كيف يشاء كحبات سبحة ويحولها من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل... لو لم تكن هناك بيانات الأنبياء الواضحة حول صفات تلك الذات العلوية المقدسة لَما أمكن إطلاق أي حكم صحيح أو التفكيرُ بشكل صحيح في حقه ﷻ.

إذًا فإن النبي إضافة إلى نفوذه إلى قلب الأشياء وحقائق الأحداث وإلقائه علينا دروسًا في الحياة بكاملها إلَّا أنّ أهم دروسه هو شرح صفات وأسماء صاحب القدرة المطلقة والعلاقات والموازنات الدقيقة الموجودة بين أسماءه الحسنى وصفاته العليا وبين الذات الإلهية.

لـذا فليـس هنـاك أي احتمـال أن يخلو أو يحـرم أي بلد مـن البلدان ولا أي زمـن مـن الأزمـان من فيـض أنوارهـم. وكيف يمكـن ورود هذا الاحتمـال والبشـرية لم تعـرف خارج نطـاق إرشـاداتهم أي حكم صافٍ واضح لعالم الوجود، ولم تسـتطـع الارتفاع فوق شـكوك وشـبه وتناقض الفلسـفة وترددها وضبابيتها في هـذا الخصوص. لذا فإن العقل والحكمة والقـرآن يتفقـون على أن كل أمة وكل قارّة وكل عهد لا تخلو من إرشـاد نبي، ولا يمكن العكس.

فبينمـا نـرى حاجة كل متحف صغير أو معرض صغير إلى مسـؤولين عن التشريفات وإلى أدِلاء، وزيارة هذه المتاحف والمعارض تفقد معناها وغايتهـا وتكـون عبثًـا في غيـاب المرشـدين والأدِلاء؛ لـذا فكيف يمكن تصـور مجيء الزوار إلى القصر العظيـم لهذا الكون من دون وجود أدلاء ومرشدين يدلون الزوار على خصائص هذا القصر العظيم وإلى أسراره؟

وهـل هنـاك أي احتمال أن القادر المطلـق ﷻ الذي خلق هذا الكون وهذا النظام، وجعل هذا الكون معرضًا للفن الإلهي بأرْوع صوره، والذي عرّف نفسـه لمشـاهديه بآثاره وبدائعه، فهل يعقل أنـه بعد عرضه كل هذه الآثار والمعارض الربانية لا يختار أشخاصًا متميزين ليقوموا بتعريف ذاته وصفاته وأسـمائه إلى هؤلاء المشـاهدين المشـتاقين فيكـون كل ما عمله من أعمال حكيمة -حاشا لله- عبثًا، ويعرض أفعاله الحكيمة للاتهام؟ بينما كل شـيء يخبرنـا بلسـان واحد وبنغمة واحـدة بأن القـادر المطلق حكيمٌ في كل شؤونه منزّهٌ عن العبث متعال عن ذلك.

هذا علاوةً على أن الله تعالى يقول في كتابه الكريم عن ظهور الأنبياء في كل أمة ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ (سُـورَةُ النَّحْلِ: ٣٦/١٦). ولكن البشـرية سـرعان ما نسيت الدروس التي تلقتها

من هؤلاء الأشخاص العظام، وانحرفت عن الصراط السوي بتقديسها لهؤلاء الأنبياء وتأليههم، فعادتْ إلى الوثنية مرة أخرى. وهناك مئات من الأوثان التي خلقها الخيال الإنساني ممتدة من جبل الآلهة في اليونان حتى نهر الجانج في الهند، وهذه الأديان مختلفة في وضعها وشكلها الحالي عن وضعها وشكلها في بداية ظهورها اختلافًا كبيرًا.

لذا لا يمكننا تقييم "كونفشيوس" الصين أو "براهما" و"بوذا" الهند تقييمًا صحيحًا إلا بعد التعرف على ظروف عهودهم وما جاؤوا به بداية. فالزمن يبلي كل شيء، وتتغير خلاله نظرات الإنسان وقيمه. لذا فمن الصعوبة بمكان أن نعرف إلى أي مدى تغيرت صورة هؤلاء وابتعدت عن أصلها بسبب عوامل الزمان الذي يغير كل شيء وبسبب فكر الإنسان التغيُّرُ والتحولُ شأنُه.

لو لم يقم القرآن الكريم -ببيانه المزيل لكل الشبه- بإعلامنا وإخبارنا عن عيسى عليه السلام لَما كان بالإمكان معرفة حقيقته داخل جدران الكنائس ضمن مفاهيم القسيسين والرهبان الذين يقومون حول تماثيل عيسى عليه السلام بمراسيم اختلطت بها شعائر الوثنية. إذ إن رفع البشر إلى مرتبة الألوهية وتنزيل الذات الإلهية إلى مرتبة البشر، والدخول في تناقض عقلي صارخ من أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وتحريف العقيدة وتشويهها وتزييف العقل والمنطق لَهو أعظم صفاقة وجحود لله سبحانه.

ونحن نشاهد الآن أن الشعائر المسيحية المحرفة في معابدها لا تختلف كثيرًا من ناحية الشكل عن الوثنية اليونانية والرومانية. ولولا البيان القرآني وتوضيحاته فإن من يشاهد الكنيسة وما يجري فيها يصعب عليه تمييز المسيح عليه السلام عن "أبولّو".

لذا فإذا كانت المسيحية قد حرفت كتابها وشوَّهت صورة نبيها كل هذا التحريف والتشويه وهي قريبة الظهور من عصرنا، إذًا فكم من مسيح وجد في القرون الأبعد وكم منهم تعرض إلى تحوير دينه وتحريف صورته في أذهان الناس. عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "**مَا كَانَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ**"(٧٩)، وهذا مهم جدًّا. أجل، فكم من دين نراه الآن دينًا باطلًا نبع من نبع صاف في بدايته وكان الوحي مصدره، ولكنه نتيجة جهل أتباعه والعداء الظالم لأعدائه انقلب بجميع أُسسه إلى مجموعة من الخرافات والأوهام.

إذًا فإن معظم الأديان ذات المظاهر الباطلة والتي استمرت ووصلت إلى أيامنا الحالية كانت مستندة في الماضي إلى أسس متينة صالحة صافية في الأكثر. والظاهر أن كل عصر كان يحمل سمة وختم نبي من الأنبياء.

إن إسناد النبوة إلى شخص ليس بنبي يُعد كفرًا ككفر إنكار نبوةِ نبيّ. إن الإنسان لا يملك نفسه من النظر نظرة شك إلى منشإ البوذية أو الاقتراب بحذر كبير من "البراهمة". بل يجب البحث حتى عمّا وراء الفلسفة العقيمة الضيقة للكونفيشيوسية أيضًا. وأعتقد أن من الاحتياط النظر إلى "الشامانية"(٨٠) على أساس أنها تعرضت لكثير من التأويلات.

وسواء أكانت منابع هذه الأديان وبداياتها صافية أم يشوبها بعض الكدر فإنه مما لا يختلف فيه أحد أنها كانت مختلفة عن وضعها الحالي. فهي تعرضت إما لتآكل الزمن، أو تعرضت لتراكمات وإضافات جديدة

(٧٩) صحيح ابن حبان: ٧٣/١٤.

(٨٠) الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف. وإن هذا العالم لا يستجيب إلَّا للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. (عن قاموس المورد)

ممـا أدى إلى تغيرهـا واختلافها عن حالها الأول. ولو فرضنا المسـتحيل ورجـع مؤسسوها إلى الحياة مرة أخرى لما عرفوا الأديان التي جاؤوا بها.

هناك أديان كثيرة في الدنيا تعرضت للتحريف والتغيير، ومن الضروري قبول أن القسْـم الأكبـر منها كانت صافية المنبع. والقـرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنْ مِـنْ أُمَّـةٍ إِلَّا خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سُـورَةُ فَاطِـرٍ: ٢٤/٣٥)، فيعطي بذلك حكمًا عالَميًّـا شـاملًا. ولكننـا لا نعرف من الأنبيـاء الذين ظهروا فـي كل العالم والذي يبلـغ عددهم حسب إحدى الروايات ١٢٤ ألف نبي[٨١].. لا نعرف سـوى ٢٥ (أو ٢٨) نبيًّـا. ومـع ذلك فنحن لا نعـرف أماكن وأزمنة هؤلاء الأنبياء ولا نملك معلومات كافيةً عنهم.

ثـم إننا غيـر مكلفين بمعرفة جميـع الأنبياء الذين جـاؤوا إلى الدنيا. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٧٨/٤٠)، أي إنه نبه إلى عدم الخوض أو المماراة في موضوع الأنبياء الذين لم يقصّ خبرهم علينا.

ولكن من المعلوم من علم تاريخ الأديان والفلسـفة والأنتروبولوجيا وجود نقاط مشتركة عديدة في العقيدة بين كثير من المجتمعات الإنسانية مـع أنها متباعـدة بعضها عن بعض بعدًا كبيـرًا. فمثلًا يلاحظ في جميعها التوجـه مـن التعدديـة إلـى الواحديـة. وعنـد التعـرض إلى مصيبـة كبيرة لا يمكـن تحملهـا يُنبـذ كل شـيء جانبًا وتفتـح الأيدي فـي حضرة ذات عليـة، وترفـع الأيـدي إلـى الأعلـى دائمًا... أي هناك تشـابه فـي مظاهر السـلوك والتصـرف عندما يتعلـق الأمر بشـيء وراء الطبيعة. وهذا يشـير إلى وحْدة المنبـع ووحدة المعلّم. فمن السكان الأصليين في جزر الكناري إلـى الملايـا، ومن الهنـود الحمر إلى قبائـل المومو نرى الشـعائر الدينية نفسها، والألوان والديكور نفسه والأنغام نفسها أو تتشابه فيما بينها.

(٨١) مسند الإمام أحمد: ٢٦٥/٥؛ صحيح ابن حبان: ٧٧/٢؛ المستدرك للحاكم: ٦٥٢/٢.

والملاحظات التي سجلها الأستاذ الدكتور مصطفى محمود حول قبيلتين وحشيتين وبدائيتين جدًّا تؤيد هذا الأمر. إذ يقول الدكتور مصطفى محمود بأن قبيلة المومو تعتقد بإله اسمه ''موجاي''، وهذا إله واحد في ذاته وفي إجراءاته، وهو لم يُولَد من أحد ولم يلِد أحدًا، لا شبيه له ولا ند، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفهام، ولكنه يُعرف بآثاره. وينقل عن قبيلة ''نِيامْ نيام'' أشياء مشابهة لعقيدة قبيلة المومو، إذ يعتقدون بإله حاكم على كل شيء، قادر على أن يحرك ويوجه كل شيء في الغابة حسب إرادته ويرسل شرارات البرق على الأشرار... أي يؤمنون بالمعبود المطلَق.

وكما تبيَّن فإن العقيدة الإلهية لهؤلاء تتشابه كثيرًا مع ما ورد في القرآن الكريم حول الذات الإلهية، بل نستطيع أن نقول إن المومو يعبرون تقريبًا عن المعنى الوارد في سورة الإخلاص. إذًا فمِن أين استطاع هؤلاء الأقوام -البدائيون البعيدون جدًّا عن المدنية وعن ساحة تأثير الأنبياء الذين نعرفهم- الوصول إلى مثل هذه العقيدة الإلهية العميقة والصافية في الوقت الذي لم يصلوا إلى معرفة أبسط قوانين الحياة؟ إذًا فالآية: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ يُونُسَ: ٤٧/١٠) توضح حقيقةً عالميةً شاملةً، وليست هناك أرض خارجة عن نطاقها.

وسمعت من الأستاذ ''عادل زينل'' أستاذ الرياضيات من مدينة ''كَرْكوك'' في العراق والذي تعرفت به سنة ١٩٦٨م شيئًا شبيهًا بما نقله الدكتور مصطفى محمود، إذ قال بأنه خِلال دراسته العليا في الولايات المتحدة الأمريكية كان كثيرًا ما يلتقي بسكان أمريكا القدماء من الهنود الحمر وأنه استغرب جدًّا من بعض أمورهم. قال ''كانوا يرتبون شعائر دينيةً فيما بينهم، وكانت هذه الشعائر منسجمةً مع عقيدة التوحيد.

إذ رأيتهم يؤمنون بإله لا يأكل ولا يشرب ولا يمر عليه الزمن -أي فوق الزمن- وكانوا يكررون قولهم بأن كل ما يجري في الكون إنما يجري حسب إرادته ومشيئته، وكذلك يتحدثون عن كثير من الصفات السلبية والوجودية. ولم تكن مثل هذه الأفكار العالية السامية تتلاءم أو تتوازى مع حياتهم البدوية البسيطة والبدائية".

إذًا فإنه لا يمكن تفسير العقيدة بين الشرق والغرب وبين الأطراف القاصية من الدنيا إلَّا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى هذه البلدان وإلى هذه الأرجاء، لأنه يستحيل إرجاع مثل هذه العقيدة التوحيدية المتوازنة التي لا يستطيع إدراكها كبار الفلاسفة إلى اجتهاد وإلى فكر هؤلاء الأقوام البدائيين من أمثال قبائل المومو أو قبائل الـ"نيام نيام" أو قبائل المايا. إذًا فإن صاحب الرحمة الواسعة الذي لم يترك النحل والنمل دون أمّ، لم يترك نوع البشر دون أنبياء، بل أرسل الأنبياء إلى جميع بقاع الأرض لينشروا فيها النور.

والآن لنأت إلى الشق الثاني من السؤال وهو هل يُعذب من لم يَر نبيًّا؟

لقد رأينا في جواب الشق الأول أن أي بقعة من الأرض لم تخْل من نور النبوة. ومع أنه مرت أوقات جفاف مؤقتة، إلَّا أن الرحمة الإلهية سرعان ما كانت تهطل أمطارًا غزيرة. لذا فكل فرد سمع -قليلًا كان أم كثيرًا- بهذه الرحمة أو شاهدها أو ذاقها أو شبع منها. ولكن في البقاع التي كان التحريف فيها سريعًا نرى سرعة هجوم زمن "الفترة" بظلامه على تلك البقاع، أي إن فترات النور والظلام كانت متعاقبةً، والذين وقعوا دون إرادتهم في فترة من فترات الظلام نرى الرحمة الإلهية تنجدهم ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧). إذًا فالإنذار أولًا، والتكليف ثانيًا، ثم العذاب أو الرحمة.

نعم، لأئمة المذاهب آراء مختلفة في فروع هذا الأمر، فالإمام الماتريدي وأتباعه مثلًا لا يرى أي عذر لأي شخص في عدم معرفة وجود الله ولا سيما بعد آلاف البراهين والأدلة التي تشير إليه والتي يزخر بها الكون. أما الأشعرية فيقولون بأن معنى الآية: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧) هو دليل على أن استحقاق العذاب لا يكون إلا بعد التبليغ.

وهناك من يوفق بين الرأيين فيقول: إن كان هناك شخص لم ير أي نبي ولكنه لم يعبد صنمًا ولم يلحد بالله فهو من أهل النجاة، ذلك لأن هناك كثيرًا من الناس المحرومين من قابلية التحليل والتركيب الفكري، كما لا يستطيعون استنباط المعاني من سير الأمور والأحداث. لذا يجب أولًا إرشاد أمثال هؤلاء، ثم نرى ما إذا كانوا يستحقون الثواب أو العقاب. ولكن إن كان هناك من اتخذ الكفر مهنةً له ومسلكًا، ويفلسف هذا الكفر، ويعلن الحرب على الله، فسيَلقى جزاء إلحاده وكفره وإن كان في أقصى الأرض.

والنتيجة أنه ما من بقعة أو بلد خلا من الأنبياء، وأنه ما من زمن "فترة" طويل خال من الأنبياء. فإنسان كل عهد أخذ نصيبه من النسيم العطر الذي نشره نبي من الأنبياء. أما في الأماكن التي نُسي فيها اسم النبي وذكْره وبهتت آثاره بمرور الزمن، فقد أطلق تعبير "الفترة" على هذه العهود حتى ظهور نبي آخر، ومثل هذه العهود -أي عهود الفترة- سيُغفر لأهلها ولكن بشرط ألا يكفروا بالله وألا يلحدوا به عن سابق قصد وشعور. والله تعالى المحيط بعلمه بكل شيء هو أعلم بالصواب.

obeikandl.com

حدوث الأرواح

سؤال: بما أن الأرواح غير متغيرة، إذًا فهي ليست حادثة، ما قولكم في هذا؟

الجواب: هذه مسألة من المسائل العميقة في علم الكلام، وهي تحتوي على ما يأتي: نحن نقول بأن الكون متغير وعرضة للتبدل باستمرار، لذا نقول عن الكون إنه حادث، أي إنه كان معدومًا فخُلق فيما بعد، وأنه سائر نحو الاضمحلال، ويتحرك بشكل دائم ويتحلل. ونقول "إن منظِّم وبارئ هذا الكون المتحول مبرّأٌ من التبدل والتغيّر"؛ أي يمكن إطلاق اسم مبدأ "رجوع المتبدِّل إلى غير المتبدل"، أي إن كل شيء متغيرٍ ومتبدل يدل ويشير ويرجع خلقه وأمره إلى الذات الأقدس المبرأ من التبدل والتغير والتحول، وهو الله ﷻ الواجب الوجود. وهو منزه عن جميع العوارض الكونية والبشرية. لذا فالمسألة أعلاه ترد عند سرد هذه الصفات الإلهية، ويرد هنا سؤال وإشكال:

إن الله لا يتغير ولا يتبدل، لا يأكل ولا يشرب، وهو قديم، ووجوده من ذاته وهو أبدي كذلك.

أما بالنسبة للروح فهو بسيط، أي إنه غير متركب من مادة، وهو من عالم الأمر -كما جاء في القرآن- وليس من عالم الخلق (أي وجوده ليس ناشئًا من اجتماع الذرات)، بل هو قانون مثل القوانين الكونية، لطيفٌ، ذو شعور، خُلق بأمر من الله تعالى؛ أي إن الروح قانون مثل قانون الجاذبية

الموجـودة بين نـواة الذرة والإلكترونات ومثل قانـون النمو الموجود داخل البذرة. ولكنه يملك شعورًا، بينما لا تملك القوانين الأخرى حياةً ولا شعورًا.

الروح بسيط بمعنى أنه غير مركّب من المادة، لذا لا يتحلل ولا يتأين (أي لا يتحلـل إلـى أيونـات)، ولـه وجود ثابـت. لذا قد يخطـر على بال البعض بأنه يشبه الله تعالى -حاشا لله- في هذه الناحية. أي كما أن الله منزه عن التغيّر فالروح أيضًا لا يتغير... فما الفرق إذًا؟

إن الله تعالـى منـزه عن التبدل والتغير وعن الألوان والأشـكال تنزهًا ذاتيًا. بينما خُلق الروح بسـيطًا بأمر الله تعالى. فالله خالق والروح مخلوق، والله قائـم بذاتـه وموجود بذاته بينما الروح -وكذلك سـائر الموجودات- قائمة به ﷻ. فكل شيء يمد يده يطلب العون منه ﷻ قائلًا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سـورةُ الفَاتِحَـةِ: ٥/١)، وكذلك الروح فهو مخلوق مـن المخلوقات الْمَادَّةِ يَدَ الاسـتعانة والحاجة والسـؤال إليه تعالى. ووجود الروح قائم بالله، أي هو موجـود طالمـا اسـتند إليه ﷻ، فإن لم يسـتند إليـه فَنِـيَ. والله تعالى خلق الروح وجعله قانونًا ذا شـعور مسـتندًا إلى قدرته تعالى وإرادته، ووجوده مستمر ودائم بهذه الصيغة فقط.

ولنضـرب مثـالًا يقرّب هذا إلى الأذهان: إن للشـمس ضياءً وشـعاعًا وألوانًا، ونشاهد هذا في القمر أيضًا؛ ولكن إن افترضت فناء الشمس فإنك لن تستطيـع تصور أي ضوء أو نور في القمر. فالنور الموجود في القمر أثر أو عرض من الأضواء الأصلية الموجودة في الشمس. فإن فنيت الشمس فـلا يبقـى هنـاك مجال لـدوام واسـتمرار النور فـي القمر. فهل تسـتطيع أن تدعي في مثل هذه الحالة المسـاواة بين الشمس والقمر؟ كلا، والقرآن يصـف القمـر قائـلا ﴿وَقَمَـرًا مُنِـيرًا﴾ (سُـورَةُ الفُرْقَـانِ: ٦١/٢٥) ويصف ضوءه ﴿وَالْقَمَـرَ نُـورًا﴾ (سُـورَةُ يُونُـسَ: ٥/١٠) و﴿وَجَعَـلَ الْقَمَـرَ فِيهِـنَّ نُـورًا﴾

(سُورَةُ نُوحٍ: ١٦/٧١)، بينما يصف الشمس: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (سُورَةُ نُوحٍ: ١٦/٧١) و﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (سُورَةُ النَّبَإِ: ١٣/٧٨). صحيح أن هذا المثال وهذا التشبيه لا يناسب مقام الألوهية السامية، ولكن كانت هناك حاجة إلى تشبيه مادّيّ لكي تستطيع الأذهان فهم الموضوع.

وسيعطي الله تعالى البقاء والخلود إلى الأجساد أيضًا إضافةً إلى الأرواح في الآخرة. الله باق... وهم باقون... ولكن بقاءهم مرهون وقائم به تعالى، إن أراد أفناهم جميعًا. أما وجوده هو تعالى فقائم به وبذاته... يمكن أن يفنى الجميع... أما الذات الأقدس فهو منزه عن جميع العوارض ومبرَّأ منها.

obeikandl.com

obeikandl.com

إيجاد المعدوم وإفناء الموجود

سؤال: يقولون: ''لا وجود من العدم ولا عدم من الوجود''، فهل هذا القول صحيح؟

الجواب: ينسب هذا القول إلى لافوازييه (*Lavoisier*)، وهو ادعاء محض، يقولون: المادة تتألف من الطاقة، وهي صورة متشكلة منها، فالمادة من الطاقة والطاقة من المادّة وهكذا دواليك، إذًا لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم، فمثلًا الأحياء على الأرض إذا ماتوا تآكلوا وغدوا ترابًا، فما يزالون موجودين وإنْ كانوا بصورةِ تراب، والهيدروجين في الشمس يتحول إلى هليوم، وتنتشر أشعتها وإشعاعاتها وموجاتها في أرجاء العالم، بل تمتد إلى عدة منظومات أخرى فتستفيد منها، فكيفية الوجود هي التي تتغير، أما الوجود نفسه فباقٍ.

أولًا: عندما يقول لافوازييه: ''لا وجود من العدم ولا عدم من الوجود'' يمكن أنه يريد بذلك أن الموجود لا يفنى بنفسه، ولا يوجد المعدوم أيضًا بنفسه. فلا قدرة للمصادفات والأسباب على الإيجاد والإفناء بل إن البشر وهم الذين يتمتعون بأكبر قابلية في الوجود لا طاقة لهم بإفناء موجود أو إيجاد معدوم، وهم إنما يقدرون على تغيير مركبات الموجود فحسب، فالموجود يحافظ على وجوده ويظلّ المعدوم معدومًا إلى الأبد، أمَّا إذا أسندنا الأمر إلى الحق سبحانه فسينقلب الحكم رأسًا على عقب، فالله تعالى يُفني الموجود ويوجد المعدوم، فالمعاند القائل ''لا وجود من العدم'' وهو يرى في كلّ ربيع آلافًا من النباتات تُخلق من العدم، هو أولى بالعدم.

أجـل، إن الله تبـارك وتعالى يُفني الموجود ويُوجـد المعدوم، والحقُّ أنَّه لا اعتراض للافوازييه على هذا.

ثانيًـا: هـل يحيط علمنـا القاصر بمسـألة الوجود والعـدم ليصح مثل هذا الادعاء؟

منـذ أبيقور وطاليس والناس يظنّون أن الذرّة هي أصغر أجزاء المادّة، أمَّـا اليوم فاكتشـفوا أنها تتشـكل مـن أجزاء أصغـر، من إلكترونـات فيها شحنات كهربائية سالبة، وبروتونات فيها شحنات إيجابية، ونيترونات غير مشـحونة، وكلها تدور حول نواة الذرة، ولم يكن لأحد علمٌ بهذه المسألة في الماضي، وأصبحت اليوم معلومةً لكل أحد، بل اكتشفوا الآن أن تلك الأجزاء تنشر موجات على الدوام.

فمعلوماتنـا فـي تجـدُّد مسـتمرّ، بـل في كل لحظـة تُخـزَّن معلومات جديدة في ذاكرتنا المعلوماتية، وبينما تطرأ على نظرية الذرة تغيرات عدّة، نشـأت نظريـة وحدة الطاقة الضوئيـة (الفوتون)، فصـبَّ العلماء جهودهم على الجُسَيمات.

نظـنُّ أننـا نعلم الكثير، بيد أن ما نعرفه عن الوجود بالنسـبة لما نجهله ليس سوى قطرة في بحر.

كنـا نظـنّ حتـى الأمـس القريب أنّ كلّ شـيء يتشـكل مـن الذرات، أمَّا اليوم فنظرية المادة المضادة تقول إن هناك ''ذرة مضادة'' تقابل الذرة، وبوسعنا أن نلحظ هذا عند قوله تعالى ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٦).

أمعنـوا النظـر فـي الإيمـان الـذي لقّنـه القـرآن الكريـم والحقائـق العلمية التي أشـار إليها: فمن كلّ شـيء خلق سـبحانه زوجين، من الذرّة

حتى الكواكب السيَّارة، أمَّا الأحد بلا شريك فهو واحد، لا يتجزأ ولا ينقسم، ولا يَطْعم ولا يشرب، ولا يحده زمان ولا مكان، ولا يُدرَك بالكم والكيف، فوجوده ذاتيّ، سبحان ربّي الأجلّ الأعلى، فهو مبرأ ومنزه عن الحدوث وملابسة الحوادث.

إن مسألة المادة المضادّة والذرة المضادة والبروتون المضاد والنيترون المضاد التي اشتغل بها العلماء كثيرًا في عالم الفيزياء والفيزياء الفلكية من أندرسون إلى أسيموف على اعتبار أنها نظرية جديدة لَتثبت لنا قِصر حدود معارفنا وقلة استيعابنا المعرفي. فالإنسان المغرور بعلمه يدرك من هذه الاكتشافات الحديثة أن علمه نقطة في بحر، فالإنسان كلما قرأ ازداد علمه وجهله على حد سواء.

وبعدما اكتشف أندرسون البوزترون، اكتشف شيئًا آخر يدور مكان الإلكترون. إن ما اكتشفه كان مشحونا بشحنة موجبة، ومن المعلوم أن الإلكترون لا بد أن يكون مشحونًا بشحنة سالبة، وهذا يثبت أن هناك مادة مضادة تقابل المادة. وما زال العلماء يشتغلون الآن ويبذلون قصارى جهدهم لحلّ هذا السر. وإن واصلنا التعداد امتدّ بنا الموضوع إلى الجُسَيْم المضاد والبروتون المضاد والنترون المضاد والإلكترون المضاد والجزئي المضاد... ولربما يقال مثل هذا للكائنات الحية -رغم أنه لم يُكتشف بعد- أعني النبات المضاد والإنسان المضاد والحيوان المضاد...

يقول أينشتاين وهو الذي ظهر صدق كثير من تنبؤاته: ''المكان ذو البعد الثلاثيّ المرئيّ له بُعْدٌ رابع هو الزمان''، ولا ريب أن هذا منوط بالإدراك والحدس، فلو كنتم في هذا المكان مثلًا فنظرتكم إلى الأشياء ستختلف كليًّا، فهناك مكانٌ آخر غير ما نحن فيه، ولم يتشكل ذلكم المكان مطلقًا عن تحوّل مادة أخرى.

- ما العلاقة بين المادة والمادة المضادة؟

يقال إنهما مخلوقتان تتمكن إحداهما من القضاء على الأخرى.

ويقول العلماء: ستقضي المادة على المادة المضادة في يوم ما؛ بيد أنه لا يوجد أي دليل يؤكد كلامهم.

لو فرضنا صدق بعض دعواهم وقلنا: إن كثافة المادة على الأرض أكثر من المادة المضادّة، وكانتا متقابلتين عندما خُلق الكون، ثم أكل كلٌّ منهما الآخر وقضى عليه، وأخيرًا اقتضت أسباب شتّى بقاء بقيّة من المادة، فتفوقت على المادة المضادة، ومنها نشأ هذا العالم.

ما يقولونه تأباه العقول؛ فلو وقع مثل هذا لما كان يسوغ الكلام عن وجود مادّة مضادّة على الأرض، فمقتضَى ذاك الادعاء أن المادة المضادة قد قضي عليها منذ بدء الخلق.

وبمنظار آخر: دعوى وجود ما هو مضاد للمادّة والذرة تشير إلى عالم خفيّ عنّا، فنحن خُلقنا من مادة مرئية، ولربما خُلِق الجنّ من مادة شبيهة بالمادة المضادة؟ ولِمَ يأبى أناسٌ خلقَ الملائكة من نور؟ أوليس من الممكن أن الملائكة أوتيت قوّةً تمكنّهم من القضاء علينا؟

وفي سيرة الأنبياء ما قد يشير لذلك، ففي القرآن أن الملائكة نزلت وتمثّلت بصورة أشياء ماديّة فأهلكت أقوامًا، فلو أمرها الله تعالى وأذن لها لدمّرت الكون بسلسلة إجراءات؛ فللمادة نسيج معين وللمادة المضادة آخر كما الجن والملائكة، فمَثَل الدنيا والآخرة كمثل المادة والمادّة المضادة، والمكان والمكان المضادّ، والزمان والزمان المضادّ.

كان النبي ﷺ يرى الجنة حقيقة، ويأخذ عناقيدها بيده، ويرى جهنم، ويُفزِعه ما فيها من أهوال وفظائع، فهو ﷺ كان يتصل بعالم المادة المضادّة وهو ما يزال في عالم المادة.

إذًا إنَّ وجود العالم بمادَّته ومادّته المضادَّةِ ليس شيئًا يسيرًا، وعليه فلا محلّ لقول قائل ''لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم'' بناءً على قولٍ مهجور قيل قبل قرن.

وأجدني مضطرًّا لأكرر أنّ ما نعرفه عن العالم نَزْرٌ يسير، فقديمًا قامت القيامة حول مادة الأثير، وحاول فريق إثبات وجودها بأدلة شتى، وأنكره آخرون مثل مايكلسون وفقًا لما دلَّت عليه نتائج أبحاثهم، فعارضهم لورينز هذه المرة قائلًا: ''كلا، لا يمكنكم أن تقولوا هذا''، فكانوا جميعًا يقولون ما هَدَت إليه أبحاثهم. أليس غريبًا إذًا القطعُ بحكم في مسألة الوجود والعدم رغم كل ما لا نعلم ماهيته ومنه الإنسان؟

ويمكن أن تهلك يومًا ما واحدةٌ من المادة والمادة المضادة، فتتطور الأخرى، لربما ترون يومئذ كائنات تحسبونها بشرًا مثلكم، فإذا لمستموها إذا بأيديكم تنفذ من ناحية إلى أخرى، فسمّوها إن شئتم جنًّا أو ملائكةً أو أجسامًا لطيفةً.

بعد كل ما ذكر يتضح أنّ وراء المادة عالمًا آخر، ''والذين يبحثون عن كل شيء في المادة، عقولهم في عيونهم؛ والعين في المعنويات عمياء''(٨٢).

إن وراء المادة عالَمًا عظيمًا واسعًا مغايرًا للمادة، عالم يتجلى فيه المعنى الحقيقي والنور الإلهي والذات الأحدية، ولا علم لنا به؛ فيدُ العلم قاصرة لا تبلغه.

ثالثًا: كلنا شاهد على إفناء ما هو موجود وإيجاد ما هو معدوم، فهو سبحانه يوجد النور في لحظة، ثم يُفنيه ويوجد الظلمة مكانه، ثم يفني الظلمة ويوجد النور مرة أخرى.

(٨٢) المكتوبات لبديع الزمان سعيد النُورْسي: نوى الحقيقة ٥٥.

وما زالت هذه الأحداث تتكرر أمام أعيننا، وفي كل موسم يخلق من العدم نباتًا وحيوانات لم تكن شيئًا لنرى بأعيننا عمليات إيجاد المعدوم وإفناء الموجود، ويوم تفنى هذه المخلوقات كلها سنشهد كيف يفنى الوجود أيضًا، فينكشف سرُّ الآيةِ الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٢٦/٥٥)، وسيفنى كل ما على الأرض بجوانبه المادية.

أجل، كل شيء فان، ولا باقي إلا الله ﷻ؛ فهو القادر على إفناء الموجود وإيجاد المعدوم.

والخلاصة أنّ الأفكار الغائمة هي ملاذ الماديين بنصب إلهٍ ماديّ أو قُل نصب المادة إلهًا، بدلًا من الخالق البارئ الذي يُفني الموجود ويوجد المعدوم، والذي يُشعرنا بوجوده عن طريق عجائب صنعه في الكون؛ ويدّعون أن المادة هي التي تدبّر أمر العالم، وما القوى الكيماوية والميكانيكية سوى خصائص لها.

والحق أن حقيقة المادة التي عدّوها كل شيء مجهولة؛ والغريب أن الماديين الملحدين لله لأنهم لا يعرفون كنهه -وهذا لأن الخلق عاجزون عن إدراكه- لا يرون بأسًا في عدّ المادة التي لا يدركون حقيقتها أصلَ كل شيء.

دعك من تناقضاتهم، وهلم إلى شيء من منهجهم الفكري:

المادة عندهم هي أُسّ الخلق والوجود، فهي تتحكم في كل شيء، بل إن القوة أسيرة بيدها؛ فبينما يحاولون تفسير حقيقة الوجود تجدهم يحيلون أمر العالم وانتظام الكون وتوازنه إلى ذرات عمياء لا علم لها ولا وعي ولا إدراك.

وعلى الإنسان أن يكون أعمى بلا وعي لينطلي عليه هذا الخزي من خرافات لا صلة لها بالعلم.

ذاك هو أبرز ما بيننا وبين الماديين من اختلاف، فالمادة عندهم أساس كل شيء، وحركتها وتشكلها ذاتيان، وكأنهم يعتمدون في هذا على المشاهدة والتجربة.

أما نحن -معتمدين أيضًا على المشاهدة والتجربة والعلوم الطبيعية- فنؤمن بأن المادة موجود أعمى بلا وعي ولا إدراك، تستمد حركتها وقوتها وتأثيرها في المركبات مِن مدبِّر عليم قدير وجودُه ذاتيّ وأمرُ كل شيء إلى علمه وقدرته ﷻ.

نعم، فالدوغمائية هي صبغة الماديين ومنهم المعاصرون، فالقضايا النظرية المحتملة يظهرونها علميةً قطعيةً، ليضلوا الناس؛ وهم أنفسهم من ثاروا على دوغمائية المسيحية لينكروا كل شيء، وإذا بهم يقعون أخيرًا في الدوامة نفسها والغيّ نفسه لكن من طريق آخر.

ومستندهم في معظم دعاواهم التي أعلنوها إمّا تأويلات خاطئة أو أقيسة فاسدة؛ ومنها دعواهم أنه لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم، ولو جاء يوم أثبت فيه العلماء خطأ دعاواهم قطعًا فسيختلقون غيرها ليستندوا إليها في إلحادهم.

obeikandl.com

obeikandl.com

مصادر

ابـن أبي شـيبة، أبو بكر بن أبي شـيبة، عبـد الله بن محمد بـن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت:٢٣٥هـ)؛ **مصنف ابن أبي شيبة**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

ابـن أبـي شـيبة، أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شـيبة العبسـي (ت:٢٩٧هـ)؛ **العـرش ومـا رُوِي فيـه**؛ تحقيـق: محمد بـن خليفـة بن علـي التميمي؛ مكتبـة الرشـد، الريـاض، المملكـة العربيـة السـعودية، الطبعـة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشـيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت:٦٣٠هـ)؛ **الكامل في التاريخ**؛ تحقيق: عمر عبد السـلام تدمري؛ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١-١٠، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

ابن الهمام، محمد بن همام الدين عبد الواحد (ت:٨٦هـ)؛ **المسايرة في علم الكلام**.

ابـن حبـان، محمـد بـن حبان بن أحمـد بن حبـان بن معاذ بـن مَعْبـدَ التميمي أبـو حاتـم الدارمـي البُسـتي (ت:٣٥٤هـ)؛ **صحيـح ابن حبـان**؛ تحقيق: شـعيب الأرنؤوط؛ مؤسسـة الرسـالة، ١-١٨، بيـروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ابـن حجر، أبـو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسـقلاني (ت:٨٥٢هـ)؛ **الإصابـة في تمييـز الصحابـة**؛ تحقيق: عـادل أحمد عبد الموجـود وعلـى محمد معـوض؛ دار الكتـب العلمية، بيـروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه.

ابـن سـعد، أبو عبـد الله محمد بن سـعد بن منيـع الهاشـمي بالـولاء، البصري، البغدادي (ت:٢٣٠هـ)؛ **الطبقات الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ابـن كثيـر، أبو الفداء إسـماعيل بن عمر بن كثير القرشـي البصري ثم الدمشـقي (ت:٧٧٤هـ)؛ **البداية والنهاية**؛ دار الفكر، ١-١٥، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م.

ـــــــ، **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيـع، ١-٨، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الديـن (ت:٢١٣هـ)؛ **السـيرة النبوية**؛ تحقيـق: مصطفى السـقا وإبراهيم الأبيـاري وعبد الحفيظ الشـلبي؛ شـركة مكتبة ومطبعـة مصطفى البابي، ١-٢، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ ه/١٩٥٥م.

أبو داود، سـليمان بن الأشـعث بن إسحاق بن بشـير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْـتاني (ت:٢٧٥هـ)؛ **سـنن أبي داود**؛ تحقيـق: محمد محيي الدين عبد الحميد؛ المكتبة العصرية، صيدا-بيروت؛ ١-٤.

أبو عوانة، يعقوب بن إسـحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (ت:٣١٦هـ)؛ **مسند أبي عوانة**؛ تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٥، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت:٤٣٠هـ)؛ **دلائـل النبوة**؛ تحقيـق: الدكتور محمـد رواس قلعه جي، عبـد البـر عبـاس؛ دار النفائـس، بيـروت، ١-٢، الطبعة الثانيـة، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.

أحمـد بـن حنبـل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشـيباني ؛ **مسـند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

الإسـفراييني، طاهر بن محمد (ت:٤٧١هـ/١٠٧٨م)؛ **التبصير في الدين**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

الأشـعري، أبو الحسـن علي بن إسـماعيل بن أبي بشـر (ت:٣٢٤هـ)؛ **مقالات الإسلاميين** ؛ ١-٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البخاري، محمد بن إسـماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت:٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **الجامـع الصحيـح**؛ تحقيـق: محمـد زهير بن ناصـر الناصـر؛ دار طوق النجاة، ١-٩، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه.

البـــزار، أبـو بكـر أحمـد بـن عمـرو بـن عبـد الخالـق بن خـلاد بـن عبيد الله العتكـي (ت:٢٩٢هـ)؛ **مسـند البـزار**؛ تحقيق: محفـوظ الرحمن زين الله

(من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت:٤٦٣هـ)؛ **تاريخ بغداد**؛ تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١-١٦، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ)؛ **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت:٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.

التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت:١٠٤١هـ)؛ **نفح الطيب**؛ تحقيق: إحسان عباس؛ دار صادر-بيروت، لبنان، ١-٨.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت:٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

سعيد النورسي، بديع الزمان (ت:١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت:٣٦٠هـ)؛ **مسند الشاميين**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

ـــــــ، **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (ت:٣١٠هـ)؛ تاريخ الطبري؛ دار التراث، بيروت، ١-١١، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

ـــــــ، **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م.

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت:٢١١هـ)؛ **مصنف عبد الرازق**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

عبد العزيز البخاري، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي (ت:٧٣٠هـ)؛ **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي**؛ دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١-٤، بدون طبعة وبدون تاريخ.

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت:١١٦٢هـ)؛ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي؛ المكتبة العصرية، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم**؛ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.

المناوي، محمد بن عبد الرؤوف بن علي (ت:١٠٣١هـ)؛ **التعاريف**؛ دار الفكر، بيروت، ١٤١٠.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت:٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، ١٩٩٢م.

النسفي، لشيخ الإمام أبي المعين ميمون بن محمد النسفي، (ت:٥٠٨هـ)؛ **تبصرة الأدلة في الكلام**.

obeikandl.com